فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي – دور الروح في بعث مسار التاريخ –

The philosophy of history by Malik Ibn Nabi - the role of the spirit in resurrecting the course of history -

تاريخ الاستلام: 2022/02/11 تاريخ القبول: 2022/06/26 تاريخ النشر: 2022/06/30

أ. مـــراد واحـــك *

جـــامعة جيلالي بونعامة– خميس مليانة (الجزائر)

Email : m.ouahek@hotmail.com

الملخص:

يرى مالك بن نبي أنّ التاريخ لا يصنعه الابطال، بل تحركه الروح والفكرة التي يقتنع بها المجتمع، بذلك يستطيع الشعب أن يثبت ذاته في التاريخ من خلال الاعمال التي يقوم بها، وبغير الفكرة السامية التي تحدد للأمة أهدافها، وترسم لها طريقها، وتزودها في كل لحظة بالطاقة اللامحدودة سيصبح الانسان عاجزا عن الابداع، بل يدخل في مرحلة الركود، والاجترار، ويستسلم للخرافات، والاوهام.

والنهضة لا يمكن أن تكون ممكنة بدون وجود فكرة عامة، تحرك الناس نحو أهدافهم على نحو عفوي، فهي التي تدفعهم بالتضحية في سبيلها والتحلي بالاخلاق السامية التي تدعو اليها. وهذا ما عملته النهضة الصينية الحالية التي بثت في الانسان الصيني روح التفاني في تحقيق المثل العليا الصينية وقبلها قامت النهضة اليابانية الحديثة باسترجاع روحها الثقافية التي كانت محفزا اساسيا في التفوق على الغرب.

الكلمات المفتاحية : التاريخ، الروح، الغريزة، الحضارة، الدين.

Abstract:

Malik Bennabi believes that history is not made by heroes, but is driven by the spirit and idea that society is convinced of. Thus, people can prove themselves in history through the actions they do, and without the lofty idea that defines the goals of the nation, charts its course and provides it with energy at every moment. Man will become incapable of creativity, but enters the stage of stagnation, rumination, and succumbing to myths and illusions.

Nor would the Renaissance be possible without a general idea that would spontaneously push people toward their goals. This is what the current Chinese Renaissance did, which instilled in the Chinese man the spirit of devotion to the realization of Chinese ideals, and before that it was the Japanese Modern Renaissance whose cultural spirit was a major catalyst for supremacy over the West.

Keywords: *History, spirit, instinct, civilization, religion.*

* المؤلف المرسل:

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 16/ العدد 01 –السنة 2022 ص ص 207-226

EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8151

المقدمة

كثيرا ما يطرح العرب، والمسلمون سؤالا متكررا وهو: لماذا لا تتحقق النهضة في بلادنا بالرغم من توفر كل شيء، كالموارد البشرية، والمساحة الجغرافية الكبيرة، والثروات الطبيعية، والحيازة على تموقع جغرافي مثالي في خريطة العالم؟ تختلف الاجابات عن هذا السؤال، فمنهم من يرجع أسباب التأخر إلى أسباب خارجية – تدخل العدو الخارجي – ومنهم من يرجع أسباب التخلف، إلى اسباب ذاتية. وهو غياب العقل القادر على التفكير في النهضة بطريقة عقلانية، وخلّاقة. لكن مالك بن نبي، لا يرى أنّ الامر متعلق بهذا، أو بذاك. بل يرجع الامر كله إلى غياب الروح أو الفكرة الخلاقة التي تحرك التاريخ.

لكن فهم مصطلح الروح عند مالك بن نبي، لا يجب أنْ يفهم كونه مرادف لمعنى: الاخلاق، أو الإرادة، أو النفس، أو الايمان كمعاني منفصلة عن بعضها، بل تجمع الروح عنده معاني كثيرة من أهمها: الايمان، واليقين، والتضحية في سبيلها، والطاقة المتجددة، والارادة الصلبة، والاخلاق المتعلقة بتحقيقها. فهذه الرو ح إذاوُجدت في شعب، أصبح صانعا للتاريخ. وهكذا فإنّ ما يفسّرالتخلف في العالمين العربي، والاسلامي هو غياب الروح. ولعله إذا ضربنا أقل مثال على وجود الروح، وفاعليتها في تحقيق الإنجاز، هو حضورها في فريق لكرة قدم. فعندما تغمره روح العزيمة، والانتصار فإنّه سيحقق نتائج مبهرة، حتى أمام أحسن المنافسين، وكمثال آخر عن الثورة الجزائرية، فعندما غمرت الشعب رغبة روح الاستقلال، استطاع أنْ يواجه الاستعمار الفرنسي، الاكبر عسكريا في العالم. فالروح هذه، هي طاقة داخلية متفجرة، تنبع من الايمان، واليقين. وغيابها من على الحياة الإنسانية، يحّول الانسان إلى مجرد إنسان بغير ذات هدف، ولا ارادة في العمل. خذْ مثلا الطفل الصغير الذي تربّى على فكرة الارادة الصلبة، والعزيمة، والايمان للوصول إلى تحقيق أهدافه، سوف نجد هذا الطفل بعد سنوات، انسانا ناجحا قد حقق ذاته على مستوى الحياة الاجتماعية، والمهنية بالرغم من الظروف المادية، والاجتماعية السيئة التي تحيط به من

كل جانب. في المقابل نجد طفل قد واتته الظروف بأحسنها، ولكنه يفتقد إلى العزيمة، والإرادة. فيكون بذلك شخصا فاشلا في حياته الاجتماعية، والمهنية. وإذا كان الامر كذلك على صعيد الفرد، فإنّ الامر يصدق بدرجة أكبر مع الشعب، فإذا تشبّعت أمة ما، بفكرة بدرجة اليقين، دخلت بواسطتها إلى التاريخ، وإذا خفّ الايمان بها خرجت منه. والسؤال الذي نطرحه في بحثنا: كيف تعمل فكرة الروح في شعب من الشعوب، لتحّوله إلى شعب صانع للتاريخ؟ وكيف يؤثر غيابها في الخروج من صناعته؟ وهدف بحثنا في النهاية هو: ابراز دور الفكرة الايمانية في احداث اي نهضة حقيقية على مستوى الشعوب. واستخدمنا للإجابة عن اشكاليتنا المنهج التحليلي، والمنهج المقارن.

2. التاريخ تصنعه جرأة البطل أم حركة العلماء؟:

كثيرا ما تتحدّث كتب التاريخ عن نظريتين في صناعة حركة التاريخ، فالنظرية الأولى: ترى أنّ تاريخ العالم ليس إلاّ تجلّي لأعمال الابطال على مسرح التاريخ، وأنّ إرادتهم في النهاية، تُوجّمسار العالم نحو الوجهة التي يريدونها. أما النظرية الثانية: فترى أنّ الوعي، وعامل الروح هو من يصنع التاريخ، وليس الابطال في النهاية إلّا تجسيد لهذه الروح. **(محمود، 1975، ص68)**. يميل مالك بن نبي إلى النظرية التي ترى أنّ التاريخ لا يحّركه الابطال، أو الافراد بمعزل عن شعوبهم، ذلك أنّ جهودهم ستبقى محصورة بهم، ولا تتعدّى أفعالهم الإطار الفردي. فالأمير عبد القادر، وأحمد باي، وفاطمة نسومر، ثاروا في زمن عرف تخلّف العالم الإسلامي، وخضوعه للاستعمار. وبذلك لم تكن ثوراتهم لتفعل فعلها في النهوض الحضاري. فالنهضة لا يقوم بها فرد، أو بطل بمعزل عن باقي الشعب، ذلك أنّه " في الماضي فقد كانت البطولات تتمثل في جرأة فرد، لا في ثورة شعب، وفي قّوة رجل لا في تكاتف مجتمع، فلم تكن حوادثها تاريخا، بل كانت قصصا ممتعة، ولم تكن صيحاتها

صيحات شعب بأكمله، وانّما كانت مناجاة ضمير لصاحبه، لا يصل صداه الى الضمائر الأخرى، فيوقظها من نومها العميق "(بن نبي، 1986، ص23)

من خلال هذه الفكرة، يحاول مالك بن نبي أنْ يبين أنّ عملية النهضة ليست بتلك النظرة السطحية التي في أذهان البعض من العرب، والمسلمين إذ ينتظرون أبطالا خارقين "من السماء"، ليغيّروا من واقعهم، وليدفعوا بهم إلى التقدم، والتحضر، ولريادة العالم. كلّا إنّ الامر متعلّقِ بنهضة وعي مجتمعي شامل، يحّك الشعب بأكمله ليؤدي دوره التاريخي في التغيير. فالتغيير التاريخي لا يتم من خلال فرد واحد، بل من خلال الجموع. يضُمر مالك بن نبي هنا نقدا لفكرة المهدي المنتظر، أو الرجل المخلّص التي لعبت دور المخدّر في لمجتمعات الإسلامية، فبانتظارها لتغيير يأتي من السماء، نست تغيير نفسهاويذكّر مالك بن نبي: أنّ السلطات الاستعمارية قد تنبهّت للدور الذي تلعبه الجموع في النهضة الحضارية، ولهذا ابعدت الشيخ صالح بن مهنة، وعبد القادر مجاوي من إكمال مهمتهما في ايقاظ الوعي الجمعي في قسنطينة، وفي محاربة الخرافة والدروشة "كيلا يستيقظ النائمون " (بن نبي، 1986 ص23)

وهكذا فإن الحضارة عند مالك بن نبي لا يقوم بها الافراد، والابطال بمعزل عن شعوبهم، وإلّا كانت تلك الاعمال مجّرد قصص، وملاحم فردية، بل هي بالعكس من ذلك تماما، تفاعل اجتماعي واعي نحو التغيير الهادف، فالفرد لوحده غير قادر على صنع حضارة، بل هي عملية تاريخية يقوم بها مجموع الأفراد، والمجتمع ككل يحّركهم هدف واحد من أجل الدخول في التاريخ ، أما البطولات الفردية فهي بعيدة كل البعد عن إحداث نهضة حقيقية في المجتمع، ذلك أنّ هذه البطولات لا تعالج جوهر المشكلة الحضارية، بل اتجهت لدفع الناس لمقاومة المستعمر، فخطاب المقاومة هو غير خطاب النهضة، فالأول يتجه نحو دغدغة مشاعر الناس، أما خطاب النهضة فهو خطاب الوعي الذي يحّول الانسان من إنسان خامد، ومستهلك، ومؤمن بالأوهام، وبالخرافات إلى إنسان يصنع الحضارة من

خلال مشاركته الفعّالة في المجتمع. وهذا ما فهمته جمعية العلماء المسلمين من خلال اتجاها نحو مقاومة الجهل، من خلال الوسائل التعليمية، ومحاربة الطرق الصوفية التي كّرست الخرافات، والاوهام في اوساط الشعب لهذا " كان أساس منهاجهم قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وإنّه لتفكير سديد ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية، انما يكون في نفس الظروف، والشروط التي قامت عليها الحضارة الأولى" (بن نبي، 1986 ص25)

ومثلما لا يمكن تفسير ظاهرة الحضارة إلا بوصفها ظاهرة وعي اجتماعي، كذلك يمكن تفسير ظاهرة الاستعمار في العالم الإسلامي، بوصفها خمود روحي، وتعطُّل للعقل في داخل المجتمع. فالمستعمر ما كان ليستعمر أرضا لو لم يكن أهل تلك الارض لهم قابلية للإستعمار. فالمجتمع يخضع للإستعمار عندما يمر بشروط نفسية، واجتماعية تجعله مطية للقوي ف" ليس ينجو شعب من الاستعمار، وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أنْ تتسع لِذِلّ مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للإستعمار" (بن نبي، 1986ص31) . فالاستعمار لن يكون ممكنا إلا إذا كانت الذات قابلة له نفسيا. لأنّه في المقابل، نجد شعوب غير مؤهلة للإستعمار حتى ولو دخلت جيوشه في داخل أراضيها. وفي هذا يرتكز بن نبي على أمثلة واقعية بقوله: " يمكننا التدليل على هذا بذكر حالة بعض البلاد الافريقية، والاسيوية التي لم يطأ ترابها الاستعمار، ولكن نراها خاضعة لجميع الظروف الاستعمارية مثل : الفقر، والجهل. بينما بلاد أخرى مثل: اليابان، أو المانيا بعد الحرب العالمية الثانية تحلُّ بأراضيها جيوش الاستعمار، ولكن لا تتكّون فيها ظروف استعمارية رغم ذلك" (بن نبي، 1986 ص31).

وقد أصابت جمعية العلماء المسلمين عندما أخذت على عاتقها مشروع الاصلاح القائم على تغيير ما في النفس لتغيير ما في المجتمع ، فالتحرُّر من الاستعمار، والتخلف قائم على

تحرير نفسية الانسان قبل كل شيء، ولا يقوم على الخطب السياسية الرنانة التي لا تخاطب العمق الحقيقي من الانسان " وانما بتحوُّل نفسي يصبح معه الفرد شيئا فشيئا، قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعية، جديرا بأنْ تحترم كرامته. وحينئذ يرتفع عنه القابلية للاستعمار، وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله، وتمتص دمه " (**بن نبي، 1986، ص31**).

3. الابداع التاريخي للحضارات هو التركيب الخلاق بين المادة والروح:

يرى مالك بن نبي أن أي حضارة لها بعدين أساسيين وهما: البعد المادي وتدْخل فيه الاكتشافات العلمية ، والإختراعات التقنية، وأشياء أخرى ملموسة. والبعد الثاني هو الذي يتجلّى في الأفكار، والمعاني، والقيم، والتفسيرات الفلسفية. هذين البعدين ينصهران لدرجة أننا لا يمكن أنْ نفصل بينهما، " فأي حضارة لا يمكن أنْ تبيع جملة واحدة الاشياء التي تنتجها، ومشتملات هذه الاشياء. أيْ انّها لا يمكن أنْ تبيعنا روحها، وأفكارها، وثرواتها الذاتية. هذا الحشد من الأفكار، والمعاني التي لا تلمسها الأنامل والتي توجد في الكتب، أو في المؤسسات ولكن بدونها تصبح كل الاشياء التي تبيعها إياها، فارغة دون روح وبغير هدف" (**بن نبي، 1986 ص 43**)

حسب مالك بن نبي إنّ استيراد المنتجات المادية، وأشياء الحضارة الغربية لن ينتج حضارة. وهذا ما نلاحظه عند الكثير من البلدان العربية، والاسلامية التي تأثرت في أسلوب حياتها، وعمرانها بالنمط الغربي. إلا أنّ ذلك أّدى إلى جمع أكوام من منتجات الحضارة، وليس إلى بناء حضارة أو بما يسّمِ يه بالحضارة الشيئية، حيث تهتم الدول باستجلاب منتجات الحداثة الاوروبيةإلى داخل البلاد العربيةوتكدّ سها حيث تظهر عليها معالم الحضارة، ولكنها في الحقيقة هي في حالة حضارية فقط (**بن نبي، 1986 ص 44**)

فالسعي إلى بناء حضارة لا يكون من خلال تكديس الاشياء الحضارية، بل يمكن أنْ نبني حضارة من خلال تخطيط قبلي واعي، يصهر العناصر المكّونة لها وفق منهج فني معيّن. والتجربة الروسية، واليابانية، والصينية خير دليل على ذلك. وهذا التخطيط، أو التركيب

الخلاّق لمكّونات الحضارة يُعلّج لنا في النهضة والتقدّم. يضرب بن نبي مثال من خلال الكيمياء: فإذا كان اليورانيوم يحتاج لكي يتحلّل طبيعيا إلى اربعة مليارات وأربعمئة مليون سنة ، يحتاج المعمل الكيمياوي إلى ثواني معدودة ليحلله. وهذا ما جرت عليه التجربة اليابانية " فمن عام 1868 إلى عام 1905 انتقلت من مرحلة العصور الوسطى إلى الحضارة الحديثة "(**بن نبي، 1986 ص44**)

ولكي تكون هناك حضارة، لا بد من توفر ثلاثة عناصر أساسية وهي: الانسان، والتراب، والوقت. وإذا أردنا أنْ نفهم هذه العناصر، يقدّم لنا بن نبي مثال المصباح: فالانسان هو الذي يخطط لصنع المصباح، والتراب يعني المادة التي يُصنع منها كالرمل والحرارة، أّما الوقت فهو المدة التي يستغرقها الانسان في صنعه من البداية الى النهاية. وإذا كانت "حضارة – انسان + تراب + وقت " (**بن نبي، 1986ص44**) فلماذا لا تعطينا هذه المكّونات حضارة في العالم الاسلامي بالرغم من توفرها في البلاد الاسلامية.؟

من منطلق النزعة العلمية لمالك بن نبي، يجيبنا بمثال علمي بالمقارنة بين مكونات الماء، ومكونات الحضارة. وإذا كان الهيدروجين والاوكسجين من مكّونات الماء، فلا يكفي لتواجدهما معا، ليكّونا تلقائيا. لأنه يحتاج إلى تفاعل معين ليتم معه انتاج مادة الماء. كذلك بالنسبة للحضارة، فإنّها تحتاج إلى" مركّب الحضارة الذي يؤثّر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض. نجد هذا المركّب في الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ" (**بن نبي، 1986 ص46**). فجذور أي حضارة في التاريخ يعود أصلها إلى روح دينية عميقة " فليس من الغلو في شيء أنْ يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية" (**بن نبي، 1986ص50**) بل حتى الحضارة الغربية الحديثة لا تخلو من هذه الروح الدينية التي كانت منطلقا في بعث النهضة الغربية الحديثة والتي تمثلت في الاصلاح الديني، الذي قامت به الحركة البروتستانتية في المانيا. وبالنسبة للعرب في

الجاهلية فعلى الرغم من امتلاكهم لعناصر الحضارة: الانسان، والتراب، والوقت إلا أنّ هذه العناصر كانت خاملة، وراكدة " ومن المعلوم أنّ جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الانسان، والتراب، والوقت راكدة خامدة. وبعبارة أصح: مكّدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ، حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء ...نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكّدسة، حضارة جديدة. فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلّت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده للتمدن والرقي " **(بن نبي، 1986 ص51)** والجدير بالذكر أنّ ما لفّ العرب لم يكن خطابا سياسيا، ولا تطلُّعا اقتصاديا ماديا، ولا حُلما سلطويا في غزو العالم، بل ايمانهم بالفكرة الدينية، هي التي كانت سببا في تفاعل الأطراف الثلاثة: بين الانسان، والتراب، والوقت. الشيء الذي مكّنهم من إحداث حضارة.

4. مسار التاريخ الاسلامي: المدينة المنورة ومدينة دمشق:

يعتقد مالك بن نبي أنّ هناك قانون دوري يسري على تاريخ العالم، وعلى جميع الشعوب، وهو أنّ الحضارة إنْ أفلت عند شعب، بزغت عند شعب آخر، فلا أحد يستطيع أنْ يوقف من مجرى هذه الدورة. فهي تشبه مسيرة الشمس **(بن نبي، 1986ص 49)** وكذلك قد سرى على التاريخ الإسلامي هذا القانون. والذيتمثّله مدينتان: المدينة **الأولى**: هي المدينة المنورة التي كانت مشحونة بشرارة الروح الدينية حيث تحّول أتباعها البسطاء " إلى دعاة إسلاميين، تتمثّل فيهم خلاصة الحضارة الجديدة، وأنْ يدفعوا بروحها وثبة واحدة إلى تلك القمة الخلقية الرفيعة، التي انتشرت منها حياة فكرية واسعة متجدّدة ...ففي هذه الحقبة ظلت روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي من ليلة حّراء إلى أنْ وصلت إلى القمة الروحية للحضارة الاسلامية " **(بن نبي، 1986 ص52)**

المدينة الثانية: هي مدينة دمشق يبتدئ تاريخها من انقلاب حدث في صفين " هذه المرحلة في النموذج الإسلامي تمثل الدولة الأموية التي انعطفت بمنحنى لا يناسب الفكرة المبدئية، وهذا أّدى بدوره إلى انخفاض الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، مما أّدى إلى المرحلة الثالثة، انهيار الحضارة. وهي المرحلة التي تولّد عنها الإنسان المسلوب حضارًيا، الذي لا يساوي الإنسان الفطري، لأنه يمتلك روًحا انهزامية". **(حسن، 2016)** حيث بدأ الاهتمام بالترف، وبالعمران، وبمظاهر الملك والسياسة. ميلاد هذه المدينة يقترن بسنة 38 هجري بعد واقعة صفين. حيث تّحولت الخلافة من المدينة المنورة الى مدينة دمشق، فأصبحت هذه المدينة الجديدة تمثل من الناحية الرمزية، بداية مرحلة جديدة من حيث الاهتمام بالجوانب الدنيوية، والسياسية، والعمرانية. وبدأ اشعاع الروح يخفت تدريجيا. و" مما لا شك فيه أنّ الحضارة الاسلامية قد خرجت من عمق النفوس كقوة دافعة، إلى سطح الأرض. تنتشر أفقيا من المحيط الاطلنطي إلى حدود الصين "**(بن نبي، 1986ص53)**.

وهذا ما ذكره طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى، عندما فّسر تحول مسار التاريخ الاسلامي وانتقال الخلافة إلى معاوية بقوله: "كل شيء إذن كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس، لم يكن من القوة في المنزلة التي كان فيها أيام عمر، وعلى أنّ سلطان المال والسيف كان قد استأثر بالقلوب والنفوس، وكل شيء يدل ىعلأن علي ّ ا والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيرة النبي والشيخين، إنما كانوا يعيشون في آخر الزمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء. فقل إذن في غير تردد: إنّ أّول الظروف التي كانت تقتضي أنْ يخفق علي في سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المْحَدثين من المسلمين، وتغلّب سلطان الدنيا على هذه النفوس" **(حسين، 2012، ص 176)**.

تمثل لحظة الروح المدينة المنورة، وهي اللحظة التي أعلت فيها من شأن القيم السامية، والفضائل الخلقية النادرة: كالتضحية، والإخلاص، والتفاني في العمل، والايثار، والموت في

سبيل الاهداف البعيدة. كل هذه القيم، والفضائل مكّنة في النهاية: لتحقيق العدل استجابة للأوامر الالهية الغيبية، ولأجل هذه الغاية، يتعالى الافراد عن رغباتهم الدنيوية، والغرائزية، ويتجاوزون انانياتهم، ويذوب كل واحد منهم في شعور واحد، لتحقيق النصر لفكرتهم الدينية. في المقابل هناك مدينة العقل، أو مرحلة العمران، والبناء حيث يزدهر في هذه المدينة العلم، والعمران والرخاء، والاهتمام بالكماليات: كبناء الحمامات، والحدائق. وهي المرحلة التي يهيمن على صعيد الفكر " الفارابي وابن سينا وابي الوفاء وابن رشد ...إلى ابن خلدون الذي اضاءت عبقريته غروب الحضارة الاسلامية في نهايتها" (**بن نبي، 1986ص53**). الملاحظ عند مالك بن نبي: أنّ لحظة العقل تمثّل وسطا بين لحظة الروح، ولحظة الغريزة، ففي هذه المرحلة يقلُّ تأثير فكرة الروح والدين على النفوس والقلوب، ويحل محلها التفكير المنطقي والفلسفي والكلامي. لكن، هذه الانواع من التفكير ليس لها تأثير في جذب النفوس، وتنتهي لحظة العقل في النهاية إلى لحظة الغريزة .

5. ماهية الروح الباعث للتاريخ: يرى مالك بن نبي أنّ لحظة الروح تمثل في الحضارة الاسلامية لحظة نزول الوحي وتلقف الاتباع والصحابة له، حيث يسعون إلى تحقيق المبادئ السامية. وفيما يبدو أنّ مالك بن نبي تأثّر بتعريف المفكر هرمان دي كيسر لنج في كتابه البحث التحليلي لأوروبا في مفهومه للروح الذي جاء فيه" ولست أعني بالروح ذلك الشيء الدال على منطق، أو عقل، أو مبادئ مجردة وانما هو – بصفة عامة – ذلك الشعور القوي في الانسان والذي تصدر عنه مخترعاته، وتصوراته، وتبليغه لرسالته، وقدرته الخفية على ادراك الاشياء "(**بن نبي، 1986ص56**)

فالذي يدفع الشعب الذي غمرته الروح، للتحضُّر، وتحريك عجلة التاريخ لصالحه، هو هذا الايمان اليقيني والتسليم بمبدأ الفكرة الدينية. حيث يدفع بمضاعفة المجهود الفردي لتبليغ هذه الفكرة والتضحية بالذات من أجل تحقيق المبدأ السامي، وتجاوز الانانية والاطماع الشخصية والدنيوية. ويكون تأثير الروح عميقا على النفوس البدوية التي لم تخضع لتأثيرات

حضارية بسبب "الفراغ الذي وجدته الفكرة الاسلامية في النفس العربية العذراء" (**بن نبي، 1986ص55**). فحسب مالك ابن نبي أنّ كل حضارة تمر بثلاثة مراحل: الميلاد، ثم الأوج، ثم الأفول والزوال. فكل الحضارات في العالم تمر على هذه المراحل الثلاث. كقانون وسنّة كونية سارية على جميع الحضارات، وبداية هذه الحركة التاريخية يكون بتأثير عامل الروح، أو بتأثير الفكرة الدينية. فالروح هي التي تهب للإنسان قوة، وقدرة على الدخول في التاريخ، ومغالبة مختلف الأمم، ولهذا فقد قسّم مالك ابن نبي الدورة الحضارية في الحضارة الإسلامية إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى مرحلة الروح:

وهي المرحلة التي يتجه فيها الإنسان نحو تغليب منطق الروح، والقيم على جميع غرائزه، وميولاته الأخرى، وكبح ميوله الحيوانية. حيث تكون القيم الأخلاقية، والتضحية، والإيثار هي هدف وغاية حياة هذا الإنسان، ولا يمكن أنْ يساوم فيها. " حيث يتحّرر الفرد من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح" (**بن نبي، 1986ص67**). ويقصد مالك بن نبي بالروح: الفكرة الدينية، أو الفضائل الخلقية، أو مبادئ عليا تحرك الإنسان نحو العمل، فيضحي بذاته، وبمكتسباته من أجل تحقيق المثل العليا. ومن خصائص مرحلة الروح:

- الانتصار على الغرائز، وتنظيمها بحيث يتم اخضاع الغرائر، وتطويعها ضمن قواعد الفكرة الدينية. التي على أساسها يستطيع الانسان التحكم في غرائزه بدافع ذاتي وإرادي
- التضحية بالذات من أجل تحقيق القيم العليا.

-التسليم المطلق بالفكرة الروحية، وعدم النقاش، والجدال حول المبادئ العليا، والفضائل السامية.

–الاعتقاد الجازم بيقينية، وبحقيقة المبادئ الكبرى التي يؤمن بها." هذا القانون نفسه هو الذي كان يحكم بلالا حينما كان تحت سوط العذاب، يرفع سبابته، ولا يفتر عن تكرار قولته : أحد ، أحد. إنها سيطرة الروح التي تحررت من إسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيا في ذاتية بلال "**(بن نبي، 1986ص67)**

–الالتزام بالروح الاخلاقية المنسجمة مع الفكرة الدينية فالروح الدينية " هي نفسها تتحدث بصوت تلك المرأة الزانية التي أقبلت على الرسول لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حد الزنى عليها" **(بن نبي، 1986ص، 68)** .الفكرة الدينية هي التي بمقدورها أنْ تبعث من عناصر الانسان، والتراب، والوقت حضارة، وذلك لأنها تمنح للنفس **مبدأ شعور** حسب مصطلح مالك بن نبي، فلا الخطب الرنانة، ولا الفلسفات العقيمة، ولا الاتجاهات الايديولوجية المأخوذة من هنا وهناك، قادرة على بعث هذه العناصر من خمودها، فالدّين بوصفه شعور نفسي يمنح للنفس مبدأ العمل والحركة والقدرة على التغيير لأنّ " قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين" **(نبي، 1986ص58)**

المرحلة الثانية مرحلة العقل: وهو أوّل انعطاف للروح في الحضارة الإسلامية ذلك أنه في 38هجري تحولت الخلافة الراشدة المعليُة من القيم الدينية، والاخلاقية إلى نظام ملكي مع الأمويين، ويأتي هذا الانعطاف لينتهي في مرحلة العقل" غير أنّ هذا العقل لا يملك سيطرة على الغرائز ، وحينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالطريقة التي شاهدناها في عهد بني امية، إذ أخذت الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد "**(بن نبي، 1986ص69)**. تشهد هذه المرحلة الاتجاه نحو العطاء العلمي، والازدهار الفكري والفلسفي، والإبداع في مختلف العلوم، والفلسفات، والفنون، والشعر، إلا أن هذه المرحلة بالنسبة إلى مالك ابن نبي، يقلُّ فيها تأثير الجانب الروحي على توجيه سلوك الفرد والمجتمع. ولا تبقى للفكرة الدينية وللفضائل الخلقية ذلك التأثير الوهاج الذي كانت تلعبه في المرحلة الأولى، حيث اتجهت الحضارة الإسلامية في مرحلة العقل إلى

الترف، وفن الشعر، والموسيقى. الشئ الذي أّدى بانفلات الغرائز شيئا فشيئا، وحسب تعبيير بن نبي: " نلاحظ انخفاضا في مستوى اخلاق المجتمع. ونقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية " **(بن نبي، 1986ص69)** ومع ذلك يمكن اعتبار مرحلة العقل هي موازنة بين الفضائل الخلقية ومنتجات العقل والغرائز.

- المرحلة الثالثة مرحلة الغريزة:

في هذه المرحلة تكف الفكرة الدينية عن التأثير في الناس، كما يتوقف العقل عن الإنتاج العلمي، والفكري وتتوجه الأمة إلى إشباع غرائزها، ويضحى إنسان هذه المرحلة مجرد مجتر لما أنتجه أسلافه، بسبب توقف تفكير العقل في الابداع وهكذا " تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ " **(بن نبي، 1986ص70)** وهذا لا يعني بالنسبة إلى مالك ابن نبي أنّ مرحلة الغريزة يغيب عنها الدين بالمطلق، بل ما يعنيه: أّه ينكمش دوره إلى مجرد إيمان فردي غير باعث على التقدم، وعلى البعث الاجتماعي. ويوضح هذا في كتابه وجهة العالم الإسلامي " أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا، اعني: نزعة فردية، فإنّ رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها، إنّه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة، ويتخلّون عن واجباتهم، ومسؤولياتهم كأولئك الذين لجؤوا إلى صوامع المرابطون منذ عهد ابن خلدون " **(بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986 ص 32)** وتبتدأ مرحلة الغريزة من 1406 مع موت ابن خلدون إلى وقتنا الراهن. ومن خصائص هذه المرحلة :

-الاتجاه نحو استهلاك واجترار ما تم إنتاجه في الماضي كوضع الحواشي على المتون وشرح الحواشي

-تفقد الفكرة الدينية تأثيرها على الناس، ولن يكون لها أي باعث وجداني، واجتماعي يحرّالفرد والمجتمع نحو هذه الوجهة، أو تلك. يقول مالك ابن نبي: " لأنّ الروح، والروح وحده، هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأنّ من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أنْ يهوي بتأثير جاذبية الأرض. وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد ." **(بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986ص31)**

-يتحّول الدين إلى مجرد نزعات فردية صوفية، واعتقادات سحرية تكبح العقل من إيجاد حلول للمشكلات.

-لا يستطيع إنسان في مجتمع ما بعد الموحدين أنْ يتصور أنّ هناك حلول لمشكل ما، ذلك لاعتقاده أنّ هذه المشكلات هي واقع كوني ثابت.فمنذ " سبعة قرون لم يخترع حتى يد المكنسة "**(بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986ص141)**

-لا يمكن أنْ يكون إنسان ما بعد الموحدين(مرحلة الغريزة) صانعا للحضارة، إلا إذا تم بعث الفكرة الدينية في وجدانه من جديد. يقول مالك ابن نبي: " فدورة الحضارة تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين. كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو مكبوحة الجماح ." **(بن نبي، شروط النهضة ، 1986ص70)**.

6. مبدأ الروح ودوره في تحريك التاريخ وبعث النهضة :

بعدما استعرض مالك ابن نبي القوانين التي تحكم نشوء حضارة ومُسبّبات سقوطها. خلُص إلى أنّ الفكرة الدينية هي التي تؤثر بشكل كبير، وحاسم في نشوء أي حضارة، وفي تفعيل العناصر المكونة لها: الإنسان والوقت والتراب. صحيح أنّ العالم الإسلامي يملك الإنسان، ويملك الوقت، ويملك أيضا التراب (الأرض، المعادن، الوسائل)، ولكن هذه

العناصر الثلاثة، غير متفاعلة فيما بينها. فالواقع يؤكد أنّ هناك أعداد كبيرة من العاطلين عن العمل، – جموع بشرية ليس لها ما تفعله–، أما الوقت، فيتم إهداره في العالم العربي: في النوم، وفي المقاهي، وفي الهزل، واللعب. أما التراب، فالمنطقة العربية تزخر بخيرات كثيرة لا تستفيد منها، بل يستفيد منها الغرب. والسؤال الذي يطرحه ابن نبي: كيف يتم تفعيل هذه العناصر الثلاثة فيما بينها حتى تصبح متفاعلة لكي يدخل العالم الاسلامي الى التاريخ من جديد؟

يجيب مالك ابن نبي عن هذا التساؤل: بأنّ مبدأ التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة يكون من خلال: **مبدأ الدين، أو مبدأ الروح الذي يحّولِ الإنسان إلى إرادة فاعلة تغير الأشياء، من أجل تحقيق غايات سامية**. ذلك أنّه عندما تغيب عن المجتمع قيم روحية كبرى، وأخلاق توجيهية، يفقد الإنسان بوصلته ويتيه. من هنا يمكن أنْ نستنتج من خلال ما سبق، أنّ المبدأ الروحي يقوم بأدوار من أهمها:

– توجيه الأمة نحو مسار معين، ومحدد.

–توحيد الأفراد، والمجموع في قيم واحدة.

– يبعث في الأفراد طاقة متجددة، وحيوية مندفعة نحو تحقيق الأهداف، والآفاق.

– التضحية في سبيل الفكرة، والالتزام الشديد بمبادئها.

يقول مالك ابن نبي: " فدور الدين الاجتماعي منحصر في أنه ّيقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من (الوقت) — الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر)– وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، ومن (التراب)– الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط– مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة،

تبعا لظروف عملية الإنتاج" (بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986ص32). فالدين إذن هو الذي يعيد بعث القيم الاجتماعية المعطلة وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية.

7.مالك ابن نبي وتأثره بفلسفة الحضارة عند ابن خلدون:

من المؤكد أنّ ابن نبي قد تأثر في تصوّره لمسار التاريخ بابن خلدون فما يقابل المفهوم المركزي لمالك ابن نبي فاعلية الروح، أو الفكرة الدينية هو مفهوم ابن خلدون للعصبية. وسنعرض هنا مقابلة بين نصوص الرجلين:

يقول ابن خلدون: " وإنما قلنا إنّ عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال: لأنّ الجيل الأوّل لم يزالوا على خلق البداوة، وخشونتها، وتوحِشّا من شظف العيش، والبسالة، والافتراس، والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سْورة العصبية محفوظة فيهم، فحدُّهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون" (ابن خلدون، 1981ص301). فهو يتحدّث عن دور العصبية في تحقيق الغلبة، والهيمنة ولأجل الوصول إلى تشييد الملك. فروح العصبية في أفراد الجماعة هي التي تمنحهم دافعية نفسية من أجل الانتصار على مختلف العصبيات.

أما مالك بن نبي فيصف فترة النبوة بقوله: "إنّه الطور الحضاري الموسوم بأروع أشكال التقشف التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام مثلها الأعلى في حياته الشخصية والعائلية، وهو يتميّز كذلك بالمواقف أشد بذلا من صحابته كأبي بكر وعثمان الذين وضعوا ثرواتهم في خدمة الاسلام والمجتمع "(بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، 2002 ص45)

في الدور الثاني من الحضارة تنخفض شدّة دافعية هذه الّروح لتتحول عند ابن خلدون إلى سكون وانغماس في ترف الملك حيث يقول صاحب المقدّمة: " والجيل الثاني تحّول حالهم بالمُلك والترفُّه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة, فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم

الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيه" (**ابن خلدون، 1981 ص301، 302**) . وهو يقابل كلام مالك بن نبي في تحليله للدور الثاني من الحضارة الاسلامية التي انحرفت عن مسارها الأّول فدخلت في تشييد العمران والإنغماس في حياة الملك يقول: " ومع ذلك فنحن ندين لتلك الحضارة التي ازدهرت في دمشق في ظل الامويين باكتشاف النظام المئوي وتطبيق المنهج التجريبي في الطب واستخدام فكرة الزمن الرياضية وهذه هي المعالم الأولى للفكر الصناعي " (**بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986 ص29**)

في الدور الثالث من عمر الدولة عند ابن خلدون تتوقف العصبية من التأثير في بقاء الدولة وتدخل الحضارة بذلك في مرحلة جديدة يقول ابن خلدون: " وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء و الولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء،حتى يتأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت، فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها." (**ابن خلدون، 1981 ص302**) وهذا ما يقابل كلام مالك بن نبي: " ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان مابعد الموحدين ففي عهد ابن خلدون استحالت القيروان قرية مغمورة

بعد أن كانت في عهد الاغالبة قبة الملك وقمة الابهة والعاصمة الكبرى التي يقطنها مليون من السكان ولم يكن حظ بغداد وسمرقند خير من ذلك لقد كانت اعراض الانهيار العام تشير الى نقطة الانكسار في المنحنى البياني فإذا نظرنا الى هذا الوضع نظرة اجتماعية وجدنا ان جميع الاعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانيها انسان ما بعد الموحدين الذي خلف انسان الحضارة الاسلامية " (**بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986ص36، 37**)

الخاتمة:

إن قيام النهضة لا يتحقق بتوفير الوسائل، والإمكانيات، والوفرة المادية فقط، ولعل الكثير من البلاد العربية توفرت لها الوفرة المادية، والوسائل ولم تحقق أي اقلاع حضاري حقيقي، فالإنسان الذي يمتلك وفرة مالية، ووسائل وامكانيات. وليس له فكرة ايمانية يؤمن بها، ويناضل لأجلها، سيضع تلك الامكانيات في غير موضعها، ويهدرها في مشاريع لا تدرُّ بأي فائدة، وسيدخل في دائرة الفساد. فالفكرة السامية هي التي تحّرك الانسان نحو استغلال التراب، والامكانيات المادية في إطار زماني محدد بالعمل، أي يحدث تفاعل بين الانسان، والوقت، والتراب. وغيابها يعني: تعطيل عمل الانسان، وهدر للوقت، وعدم الاستفادة من الامكانات المتاحة. يتعلّق الامر بوجود المحفز الروحي للنهضة، وكيف يمكن مثلا: تفسير النهضة الصينية الحالية لولا اعتنائها بالعامل وبالمحفز الروحي؟ وسواء كان هذا المحفز ديني بوذي، أو اقتصادي شيوعي، أو وطني صيني فكل هذه الحوافز تلعب دور الفكرة الايمانية التي حركت الانسان الصيني ليزاحم الدول الكبرى في جميع المجالات. وها هي أوروبا لا تستغني عن المحفز الروحي في الدفع بتفوقها الحضاري نحو الامام، وعلى الحفاظ على مكانتها الحضارية. وسواء كان هذا المحفز والدافع متمثلا: في القيم الغربية كالعلمانية، أو الديمقراطية، أو تعلق الأمر بالمركزية الأوروبية، أو تعلق بجذورها المسيحية والرومانية الاغريقية، أو بأي شيء آخر. فإنّ كلها تلعب دور الروح الخلاق في جعل الانسان الغربي يسخّر امكانيات الطبيعة لصالحة، مع استغلال دقيق للوقت.

قائمة المصادر والمراجع:

- بن نبي، مالك ، (1986). شروط النهضة، ترجمة : عبد الصبور شاهين، ط2. دمشق، دار الفكر.

بن نبي، مالك.(1986). وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دمشق، سوريا. دار الافكار.

- بن نبي، مالك. (2002). مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ترجمة: بسّام بركة، أحمد شعبو . بيروت: دار الفكر المعاصر.

ابن خلدون، عبد الرحمن.(1981). المقدّمة. بيروت. دار الكتاب اللبناني.

حسين، طه (2013). الفتنة الكبرى. الجزء الثاني. لندن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

-محمود، صبحي أحمد، (1975). في فلسفة التاريخ . الاسكندرية ، مصر، مؤسسة الثقافة الجامعية.

- تماضر حسن، نماذج من فكر مالك بن نبي في "مشكلات الحضارة، نشر في 22-12-2016، تم الاطلاع عليه يوم: 18 افريل 2021، موقع: http://inkitab.me/